

الشبهة السابعة

تدعى وجود تناقض بين آية سورة [الأعراف: ٢٨] التى تنهى عن الفحشاء ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ . . وبين آية [الإسراء: ١٦] ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ !! .

• وفى الرد على هذه الشبهة نقول:

إن هذه الشبهة هى نموذج للجهل والغباء اللذين يسيطران على أصحاب هذه الشبهات. وذلك لأنه لا صحة للقول بأن الآية الثانية تأمر بالفحشاء. . . ومن ثم فلا علاقة بين الآيتين حتى تكون هناك شبهة، أو حتى شبهة شبهة!

إن الفحش والفاحشة -التي تنهى عنها آية الأعراف- هى ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال. . . وما ينفر عنه الطبع السليم ويستنقصه العقل المستقيم. . .

وغير متصور، فى أى شرع أو عقل أو منطق، أن يأمر الله- سبحانه وتعالى- بالفاحشة بأى حال من الأحوال ولا فى أى تصور من التصورات. . . ذلك أن الأمر بالفاحشة إنما يقدر فى كرامة الإنسان وعدالته، فما بالناس بالخالق المتصف بكل صفات الكمال والجلال والجمال؟! .

وآية سورة الأعراف -التي أوردت الشبهة جزءها الأخير- يتحدث جزءها الأول عن أن الكفار الذين مردوا على فعل الفاحشة قد ورثوها عن آبائهم، الذين لم يأتهم نذير. . . ومن ثم لم يأمرهم إله بفعل هذه الفاحشة. . . ولقد زعم الجيل الذى خلف هؤلاء الآباء وورث عنهم فعل الفاحشة. . . زعم أن الله قد أمرهم بفعل الفاحشة. . . ولقد ردت عليهم الآية بأن الله لا يأمر بالفحشاء، وأن زعمهم هذا هو قول وتقول على الله بما لا يعلمون. . . أى افتراء لا يستند إلى أى علم: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

وفى كل الآيات القرآنية التى تحدثت عن الفاحشة والفواحش، تأكيد على أن الذى يأمر بالفاحشة هو الشيطان -وليس الله، كما يزعم أصحاب هذه الشبهة العجيبة الذين تبنا قول المشركين! . . . ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨]. . . فالشيطان هو الذى يأمر بالفحشاء. . . وعلى العكس من أوامره ووعوده تكون أوامر الله ووعوده - سبحانه وتعالى - ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩].

هذا هو الموقف القرآنى الواضح والخاسم والدائم من الفاحشة: النهى عن إتيانها والتحذير من فعلها. . . والتنبية على أنها من غوايات الشيطان وأوامره - وهو العدو المبين للإنسان -.

● أما آية سورة [الإسراء: ١٦] التى زعم أصحاب هذه الشبهة أنها تحمل أمر الله سبحانه وتعالى - بفعل الفاحشة!!... فإنها واردة فى سياق آخر... ومعنى آخر... وقضية أخرى، لا علاقة لها بالموقف من الفاحشة، على الإطلاق... إذ هى تتحدث عن سنة من سنن الله فى الاجتماع الإنسانى: سنة هلاك الأمم والشعوب والحضارات إذا ساد فى حكمها وحكامها الترف والمترفون -المتنعمون الذين أبطرتهم النعمة وسعة العيش- لأن هذا الترف إنما يقود أهله إلى الفسوق- أى الخروج عن حد الشرع- والفسق- فى المصطلح الإسلامى- أعم من الكفر، كما أن الظلم أعم من الفسق... فإذا سيطر المترفون على أمة من الأمم أو حضارة من الحضارات، كان ذلك إيذاناً بإعمال سنة من سنن الله فى الاجتماع البشرى- سنة وقانون الهلاك والدمار والانحلال التى تأتى على العمران والازدهار الحضارى..

وسياق الآية- آية الإسراء: ١٧ الذى تجاهله أو غفل عنه أصحاب هذه الشبهة- يقطع بأن هذا الترف الذى قاد أصحابه إلى الفسوق ثم الهلاك - إنما هو اختيارهم وفعلهم، وليس أمراً من الله -سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ [الإسراء: ١٥-١٧].

-- لقد بعث الله فيهم الرسل والأنبياء، فبلغتهم الدعوة، وقامت عليهم الحجة، وزالت عنهم الشبهة.

- والذين اختاروا منهم الهدى قد اختاروا بأنفسهم لأنفسهم. . وكذلك الذين ضلوا إنما كان ضلالهم من أنفسهم على أنفسهم، إذا لا ترز وازرة وزر أخرى.

- وإذا كان القرآن الكريم قاطعاً وحاسماً وواضحاً في أن الله لا يأمر بالفحشاء:

إذ الذى يأمر بها هو الشيطان - فإن الله - سبحانه وتعالى - لا يأمر بالترف ولا بالفسوق. . والمترفون كانوا دائماً وابدأ- وعبر كل الرسائل السماوية- هم المتمردون على أوامر الله وتعاليم رسله وأنبيائه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

ولو اتبع أصحاب هذه الشبهة المنطق المجرد -الذى يجعل أمر الله عباده بالفسق مستحيلاً، عقلاً ونقلاً، ولو أنهم رجعوا إلي تفاسير القرآن الكريم لعلموا أن الله -سبحانه وتعالى- إنما أمر هؤلاء القوم بالأعمال الصالحة، وهى الإيمان والطاعة، وأن هؤلاء القوم هم الذين خالفوا هذا الأمر الإلهى عناداً منهم، ثم أقدموا على الفسق، فقامت فيهم وتحققت سنة الهلاك والدمار. .

وبعبارة الإمام فخر الدين الرازى [٥٤٤-٦٠٤ هـ ١٤٩٩م -

١٢٠٧م]: «فإن الله تعالى لا يظهر العذاب إلا بعد بعث الرسول -

ﷺ الذي يأتي بالأمر بالأعمال الصالحة . . وأنه إذا بعث الرسول فكذب به الناس لم يعاجلهم بالعذاب، بل يتابع عليهم النصائح والمواعظ، فإن بقوا مصرين على الذنوب، فهناك ينزل عليهم عذاب الاستئصال»^(١).

فالأمر بالفحشاء هو صنيع الشيطان - يتنزه عنه الله - سبحانه وتعالى - بالعقل والنقل جميعاً - . . والآيات التي تتحدث عن سنة الهلاك والدمار للأمم والحضارات التي ساد فيها المترفون الفاسقون، لا تشير - ولا يمكن أن تشير - إلى أن الله هو الذي أمر بالترف والفسوق، لأن الترف والفسوق هما اختيار المترفين الفاسقين، الذين سقطوا فيهما مخالفين لأمر الله، ومعاندين لتعاليم الأنبياء والمرسلين الذين بلغوا رسالات الله.



(١) الرازي [مفاتيح الغيب] ج ٢٠ ص ١٤٦-١٤٨ . طبعة دار الفكر - بيروت سنة ٢٠٠٥ م.

الشبهة الثامنة

هى الزعم بوقوع تناقض - فى القرآن الكريم- بين آية سورة [البلد: ١] ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ .. وبين آية سورة [التين: ٣] ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ .

ففى الأولى- على زعم أصحاب هذه الشبهة- نفى للقسم بمكة المكرمة .. وفى الثانية قسم بهذا البلد الأمين -مكة المكرمة.

• وفى الرد على هذه الشبهة نقول:

إن هذه الشبهة دليل صارخ على أن أصحابها هم «خوارج» لا علاقة لهم باللغة العربية، فضلا عن أساليب القرآن الكريم- الذى جاء بلسان عربى مبين - .. فأية سورة البلد لا تنفى القسم بالبلد الأمين -مكة المكرمة- وإنما تؤكد وتعظم هذا القسم .. وحرف «لا» ليس لنفى .. وإنما هو تعبير عربى لتأكيد القسم - وليس لنفيه- وبعبارة الإمام محمد عبده [١٢٦٦-١٣٢٣هـ ١٨٤٩-١٩٠٥م]:

«فهى عبارة من عبارات العرب فى القَسَم، يراد بها تأكيد الخبر، كأنه فى ثبوته وظهوره لا يحتاج إلى قسم . ويقال إنه يؤتى بها -«لا»- فى القسم إذا أريد تعظيم المقسم به .

كأن القائل يقول: إني لا أعظمه بالقسم، لأنه عظيم في نفسه والمعنى في كل حال على القسم. وقال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَتَلْمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥: ٧٧] ^(١).

فالعبارة قسم... وليست نفيًا للقسم... ومن ثم فإنها متسقة مع آية القسم بالبلد الأمين - مكة المكرمة - الواردة في [سورة التين: ٣] ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾.

-ولا وجود لهذا التناقض الذي توهمه هؤلاء «الخوارج» المساكين الذين يخوضون فيما لا يعرفون.. ويلعبون حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون!.



(١) محمد عبده [الأعمال الكاملة] ج ٥ ص ٣٣٠.

الشبهة التاسعة

تدعى وجود تناقض -فى القرآن الكريم- بين النهى عن النفاق وبين الإكراه على النفاق .

• وفى الرد على هذه الشبهة نقول:

أ- إن الآيات التى أوردها أصحاب هذه الشبهة جميعها تحرم النفاق وتجرمه وتنهى عنه . . وليس فيها آية واحدة تتحدث عن جواز النفاق عند الإكراه عليه . وحتى يتأكد القارئ من قولنا هذا فإننا نورد الآيات السبع التى أوردها أصحاب هذه الشبهة، وهى:

١- ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِيتُوا عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨ ، ١٣٩] .

٢- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠] .

٣- ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ

(٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿[التوبة: ٦٧ ، ٦٨].

٤- ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
[الأنعام: ٤٥].

٥- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [المجادلة: ١٤ - ١٦].

٦- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١١﴾ تَوْفُونُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٠ - ١٢].

٧- ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

ب- ثم إن العبارة التي أوردتها الشبهة للإمام البيضاوي [٧٩١هـ-
١٣٨٩م]، والتي جاءت في تفسيره لآيات سورة المجادلة، قد جاءت

فى تفسير الآيات التى تتحدث عن المنافقين : الذين اتخذوا «إيمانهم» -
الذى يقسمون بها- أو «إيمانهم» -الذى يظهرهونه- وقاية لهم دون دمائهم
وأموالهم^(١) . . ولا تتحدث عن الإكراه على النفاق -الذى أراد
أصحاب الشبهة الحديث عنه! .

ج- وهذا الإكراه على النفاق -مع بقاء القلب مطمئنا بالإيمان- قد
جاء الحديث عنه فى آيات سورة النحل: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥) مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا
مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ
اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٥، ١٠٦].

وهذه الآيات -آيات الإكراه على النفاق- مع بقاء القلب مطمئنا إلى
الإيمان- وردت فى قصة عمار بن ياسر [٥٧ق.هـ-٣٧هـ-٥٦٧-
٦٥٧م]. . وهذا الإكراه ليس نقیضا للنهى عن النفاق وتحريمه وتجريمه،
لأنه ليس داخلا فى حقيقة النفاق- الذى هو مرض قلبى، غير مرهون
بالإكراه- . . فما جاءت به هذه الشبهة هو لون من الجهالة والتخليط .

ولولا أن القوم يعرضون مثل هذا «الكلام» على جمهور غير
متخصص، ومن ثمَّ غير قادر على كشف الجهالات والتخليط، لما دعت
الدواعى للرد على مثل هذه «الشبهات»! .



(١) البضاوى [تفسير البضاوى] ص ٧٥١، ٧٥٢. طبعة القاهرة ١٣٤٤هـ-١٩٢٦م.

الشبهة العاشرة

تدعى وجود تناقض -بالقرآن الكريم- بين «النهي عن الهوى» ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]. وبين ما زعمته الشبهة من هوى أباحه رسول الإسلام ﷺ لنفسه ولقومه.. مثل:

- ١- الزواج والدخول بالسبايا -الأسيرات- دون تطليقهن من أزواجهن.
- ٢- إباحة زواج الرسول ﷺ بمن تهواه، ووهبت نفسها له ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

- ٣- وجعل النساء -الخور العين- أمل المؤمنين في المستقبل - في الجنة- ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٨) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٩) مُتَكِنِينَ عَلَى رُفُوفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ [الرحمن: ٧٦-٧٩].

● وفي الرد على هذه الشبهة نقول،

أولاً: بالنسبة للسبى والسبايا -أى الإماء.. والرق والاسترقاق..- فإنه نظام اجتماعى قديم، عرفته الحضارات المختلفة منذ عصور موعلة فى التاريخ القديم..

وفى الكتاب الذى يقده ويتعبد به اليهود والنصارى- [العهد القديم]- وهو المقدس عند أصحاب هذه الشبهات:- نجهدهم ينسبون إلى نبي الله سليمان- عليه السلام- [القرن العاشر ق.م]- أن هواه وقلبه كانا مع النساء- الخرائر منهن والإماء- السرارى- وأنه قد جمع فى ذمته سبعمئة من السيدات وثلاثمئة من السرارى- أى ألف امرأة!!- . . .
الكثيرات منهن مشركات يعبدن الأوثان. . . حتى لقد جذب هواهن سليمان إلى عبادة الأوثان!! .

وبنص هذا الكتاب «المقدس»:

«وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون، موآبيات وعمونيات وأروميات وصيدونيات وحيثيات، ومن الأمم الذين قال عنهم الرب لبنى إسرائيل: لا تدخلوا إليهم ولا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم، فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة .

وكانت له سبعمئة من النساء السيدات وثلاثمئة من السرارى، فأملت نساؤه قلبه . وكان فى زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه . فذهب سليمان وراء عشتورث إلهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين .
وبنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين على الجبل تجاه أورشليم، ولموتك رجس بنى عمون، وهكذا فعل لجميع نساءه الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن»- سفر الملوك الأول ١١: ١-٩ .

كما كان لإبراهيم -عليه السلام- أبو الأنبياء [فى القرن التاسع عشر ق.م] -سرية- هى هاجر- التى ولدت له إسماعيل -عليه السلام- .

هكذا كان الرق والاسترقاق.. وكان السبى وكانت السبايا فى التاريخ الإنسانى القديم.. حتى لقد صور [العهد القديم] هذه الصورة الغربية لبنت سليمان -عليه السلام-.. وكذلك كان الاسترقاق أساسا فى الاقتصاد والاجتماع فى الحضارات القديمة، الفرعونية.. والفارسية.. وغيرها من الحضارات..

ولقد استرقت الدولة الرومانية -عبر تاريخها الطويل.. فى عهد وثنياتها وفى عهد تنصرها- الأمم والشعوب التى وقعت تحت نير الاستعمار الرومانى.. وشهير فى ذلك التاريخ القهر والظلم الذى فرضه الرومان على الرقيق -عبدا وإماء-.. وشهيرة فى ذلك التاريخ ثورة العبيد -بقيادة «اسبارتا كوس» [٧٣-٧١ ق.م]- وما سأل فيها من دماء..

ولقد باركت الكنائس الغربية أسر عشرات الملايين من الزنوج الأفارقة -رجالا ونساء- لتقوم على دمائهم وعظامهم رفاهية الرجل الأبيض فى أوروبا وأمريكا!..

ولقد ظل نظام الرق فى الغرب المسيحى قاعدة من قواعد الإنتاج الاقتصادى، وركيزة من ركائز العلاقات الاجتماعية حتى القرن التاسع عشر الميلادى.. وحتى بعد إلغاء الرق- لتحويل العبيد إلى عمال مهرة

فى آلة الإنتاج الرأسمالى؁ بعد أن عمهم الكسل واليأس فى ظل الإقطاع- ظلت التفرقة العنصرية والتميز بسبب اللون منتشرة وحاكمة إلى عقود النصف الثانى من القرن العشرين .

ثانيا: عندما ظهر الإسلام وجد ميراثا ثقيلا ومتجذرا فى الرق والاسترقاق. . وجد العديد من العوامل والأسباب التى تمد «نهر الرق والاسترقاق» بالمزيد والمزيد من الأرقاء. . وذلك من مثل:

١- الحرب: بصرف النظر عن حفظها من الشرعية والمشروعية؁ فالأسرى يحولون إلى أرقاء؁ والنساء يتحولن إلى سبايا وإماء.

٢- والخطف: يتحول به المخطوفون إلى رقيق.

٣- والإغارات: التى لا تبتغى سوى الكيد والسلب والنهب وأسر الرجال والنساء لبيعهم فى أسواق النخاسة وتجارة الاسترقاق.

٤- وارتكاب الجرائم الخطيرة: كالقتل والسرقة والزنا؁ والتى كان يحكم على مرتكبيها بالاسترقاق.

٥- والعجز عن سداد الديون: كان يحول الفقراء المدينين إلى أرقاء لدى المرايين والأغنياء الدائنين.

٦- وسلطان الوالد على أولاده: كان يبيع له أن يبيع هؤلاء الأولاد؁ فينتقلون من الحرية إلى العبودية.

٧- وسلطان الإنسان على نفسه: كان يبيع له بيع حريته فيتحول إلى رقيق.

٨- وكذلك النسل المولود من كل هؤلاء الأرقاء يصبح رقيقاً، حتى ولو كان أبوه حراً.

ومع كثرة واتساع هذه الروافد والمصادر التى تمّد «نهر الرقيق»- فى كل وقت- بالمزيد والمزيد من الأرقاء، كانت أبواب العتق والحرية إما موصدة تماماً، أو ضيقة عسيرة على الولوج منها.

وأمام هذا الواقع المتجذر- فى ميدان الرق والاسترقاق- أحدث الإسلام «ثورة- إصلاحية- تدريجية» لتحرير الرقيق وتصفية نظام الاسترقاق- وذلك لأول مرة فى التاريخ- فأغلق كل الروافد التى كانت تمّد نهر الرقيق بالمزيد والمزيد.. ولم يبق منها سوى أسرى الحرب الشرعية والمشروعة- أى الحرب الدفاعية-.. وحتى أسرى هذه الحرب المشروعة فتح الإسلام أمامهم باب الحرية بالمن أو الفداء ﴿فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

ومع إغلاق الروافد والمصادر، التفت الإسلام- ونظامه الاجتماعى- إلى «كتلة» الرقيق ليعمل على تفكيكها وتصفيتها وتحرير أسراها.. فأكثر من «مصاب التحرير»، ووسع هذه «المصاب».. فبالقيم الإسلامية أصبح تحرير الأرقاء قربة يتقرب الإنسان به إلى الله، حتى أن تحرير كل عضو من أعضاء الرقيق هو سبيل لتحرير عضو من أعضاء العاملين على تحرير هؤلاء الأرقاء من عذاب النار يوم الدين.. كما جعل الإسلام من تحرير الأرقاء الفداء والكفارة من كثير من الذنوب التى يقع

فيها الإنسان.. وجعل مصرفاً من مصاريف الزكاة مرصوداً لشراء الأرقاء وتحريرهم ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

وفى هذا التكليف الذى تنهض به الدولة الإسلامية -والذى يعالج الفقر والمسكنة وسداد الديون- إغلاق لكثير من الروافد والمصادر التى كانت تمد نهر الرقيق بالمزيد والمزيد صباح مساء -فضلاً عما فيه من جعل تحرير الرقيق جزاء من أركان الإسلام، الذى تنهض الدولة بتنظيمه، ولا تتركه -فقط- لمبادرات الأفراد.

بل لقد امتد النظام الإسلامى إلى رعاية الأرقاء بعد تحريرهم، فلم يتركهم للضياع، وإنما دمجهم -بالولاء- فى القبائل والعشائر والعائلات التى كانوا أرقاء فيها، فغدوا أحراراً لهم ما لهذه الوحدات الاجتماعية من العزة والعصية التى ترتبها الأنساب.. إذ «الولاء لحمة كلحمة النسب لا يباع ولا يوهب»- كما جاء فى حديث رسول الله ﷺ الذى رواه الدارمى -وبهذا التحرير، وبهذا التنظيم الاجتماعى أصبح الرقيق -بعد تحريرهم- سادة.. وقال عمر بن الخطاب [٤٠ ق. هـ-٢٣هـ-٥٨٤-٦٤٤م]- وهو من هو- عن بلال الحبشى - [٢٠هـ-٦٤١م]، بعد أن حرره أبو بكر الصديق [٥١ق. هـ-١٣هـ-٥٧٣-٦٣٤م]: «سيدنا أعتق سيدنا»!.. وأصبحت مكانة «سالم» مولى أبى حذيفة [١٢هـ-٦٣٣م]- بعد تحرره بحيث يتمنى عمر بن الخطاب أن يكون حياً ليتولى الخلافة فى دولة الإسلام!..

ومع كل هذا وفوقه، أحدث الإسلام ثورة ضد نظام الاسترقاق كنظام اجتماعى واقتصادى ظل لقرون طويلة مصدر الاستغلال والثراء، وذلك عندما ساوى الإسلام فى الحقوق الدينية وفى كثير من الحقوق المدنية بين الأرقاء والأحرار. . وعندما وضع الكثير من ممارسات الجور والظلم التى كانت تمارس مع الأرقاء، حتى لقد حيد إلغاء ألقاب «العبد» و «الأمة»، ليحل محلها «الفتى» و «الفتاة»، وفرض على السادة أن يساؤوا بين أرقائهم وبينهم فى المأكل والملبس، وأن لا يكلفوهم من العمل ما لا يطيقون. . ولم يبق من ألوان التمييز -تقريبا- إلا ما يخفف عن الأرقاء، بسبب قيود الرق على الحرية. . حتى لقد حول الإسلام الرق والاسترقاق إلى «عبء مالى» بعد أن كان مصدراً رئيسياً من مصادر الكسب والاستغلال والثراء، الأمر الذى أحل الزهد فى الاسترقاق محل النهم والطمع فيه.

ثالثاً: أما التسرى، ومعاشرة الأسيرات والإماء من قبل مُلاكهن معاشرة الأزواج -والذى تحاول هذه الشبهة غمز الإسلام فيه- ففضلاً عن أنه نظام قديم قدم الرق والاسترقاق، وليس اختراعاً ابتدعته الشريعة الإسلامية -فإن الإسلام قد جعله نظاماً اجتماعياً وأُسرياً يحقق العفة والإشباع الجنسى للسرية، ويفتح أمامها وأمام نسلها باب العتق والتحرير. . فإذا ولدت الأمة من سيدها يصبح أولادها أحراراً -على عكس الحال فيما قبل الإسلام وفى خارج إطار الإسلام -كما ترتفع هى -بالولادة- إلى مرتبة «أم الولد»، وتصير حرة بعد موت مالكها.

ولقد سميت الأمة التي يختارها مالکها سرية له - سميت «سرية» -
لأنها موضع سروره، ولأنه يجعلها في حال تسرها دون سواها أو أكثر
من سواها. . فالغرض من التسرى ليس مجرد إشباع غرائز الرجال،
ولأنما أيضاً الارتفاع بالسرية إلى ما يقرب كثيراً من منزلة الزوجة الحرة. .
وتحقيق عفتها. .

وبعد أن كانت الشرائع والحضارات السابقة على الإسلام لا تضع
حدّاً لعدد السراى اللواتى يعاشرهن مالکهن وقف أمر التسرى فى
صدر الإسلام عند سرية واحدة. . . واشترط بعض الفقهاء أن لا
يزيد عدد السراى عن أربعة - مثل الزوجات الحرائر - أو أن يقف
العدد عند الأربعة من الحرائر والسراى معاً. . وفى عدل الرجل بين
نسائه، قال بعض الفقهاء: إن ما يجب للزوجة الحرة يُستحب
للسرية. . وجعل فقهاء الخنابلة الإحصان للأرقاء - ذكورا وإناثا - أمراً
واجباً، لأن المقصد من التسرى - كما يقول الفقهاء - هو «استعفاف
مالك الأمة. . وتحصين الإماء لكيلا يملن إلى الفجور، وثبوت نسب
أولادهن».

ولقد اشترطت الشريعة الإسلامية لجواز التسرى أن لا تكون الأمة
مسروقة أو مغصوبة. . وأن تكون مسلمة أو كتابية إذا كان المتسرى بها
مسلماً. .

رابعاً: أما الفرية التى تفتريها هذه الشبهة على الإسلام وشريعته،
والتى تدعى أن رسول الإسلام ﷺ «قد أباح لأتباعه القيام بالغارات

الدينية والدخول على الأسيرات دون تطليقهن من أزواجهن» . . فهي
فرية مصدرها الجهل المركب والبغض الذى يعمى أصحابه عن حقائق
الإسلام . . ذلك أن كل حروب الإسلام كانت دفاعاً عن العقيدة- التى
فتنهم فيها المشركون - وعن الوطن- الذى أقاموه بالمدينة المنورة- بعد أن
أخرجهم المشركون من وطنهم مكة- . . ولم يعرف الإسلام- عبر
تاريخه- «الغارات والحروب الدينية»، التى دامت قروناً فى الغرب
المسيحى، وداخل المسيحية ذاتها- بين الكاثوليك والبروتستانت- والتى
أبید فيها عشرة ملايين مسیحى . . أو ٤٠٪ من شعوب وسط أوربا!-
. . بينما لم تتعدى ضحايا كل حروب الرسول -ﷺ- الدفاعية من جانبه
والعدوانية من جانب الشرك- ٣٨٦ ضحية من الجانبين! . .

وليس صحيحاً ما افترته الشبهة من أن المسلمين كانوا يدخلون
بالأسيرات السرارى فور أسرهن، وهن على ذمة أزواجهن . . فمنذ عصر
النبوة اشترطت السنة النبوية للدخول بالسرية براءة رحمها- بالوضع إن
كانت حاملاً . . أو بالحيض والطهر إذا كانت غير حامل- وفى هذا
التشريع قال رسول الله ﷺ يوم حنين سنة ٨هـ- ٦٣٠م- فى سبى
أوطاس: «لا توطأ حامل حتى تضع، ولا غير ذات حمل حتى تحيض
حيضة»- رواه أبو داود- . . وذلك حتى يبرأ رحمها قبل الدخول بها.

ولقد اشترط فقهاء المذهب الحنفى للدخول بالسرية أن يهين لها
مالها منزلاً خاصاً بها، كما هو الحال مع الزوجة الحرة.

وعقب غزوة خيبر سنة ٧هـ-٦٢٨م بنى رسول الله ﷺ بصفية بنت حبي بن أخطب، بعد أن دفعها إلى أم سليم تهيتها، وبعد أن حاضت حيضة برئ بها رحمها. . وكان تحريره لها، وبناءؤه بها، تكريما لها، ورفعاً لمقامها، بإدخالها في بيت النبوة ورئاسة الدولة والأمة.

ولقد كانت علاقات الزوجية بالسبايا المتزوجات من المحاربين غير المسلمين، تنقطع، إما بمقتل أزواجهن. . أو بإسلامهن. . أو بالواقع الذى أنشأته الحرب، والذى فرق بينهن وبين أزواجهن السابقين تفريقاً أبدياً، بعد أن دخلن في أمة أخرى ومجتمع مختلف ودين جديد. .

خامساً: أما ذهاب أصحاب هذه الشبهة إلى غمز الحياة الزوجية لرسول الله ﷺ بالقول إنه «أباح لنفسه الزواج بمن تهواه ويهواها بلا قيد أو شرط فوق زوجاته العديداً وفوق ما ملكت يمينه». . فهو كذب وافتراء تدحضه حقائق تاريخ الحياة الزوجية لرسول الله ﷺ:

لقد عاش الرسول ﷺ كل مراحل شبابه مع زوجة واحدة. . وهى خديجة [٦٨ق.هـ-٣ق.هـ-٥٥٦-٦٢٠م]- التى كانت تكبره بخمسة عشر عاماً. . ولم يتزوج بعد وفاتها- وتتعدد زوجاته إلا بعد أن تجاوز الخمسين من عمره. . وبعد أن حمل كل هموم الدولة. . والدفاع عنها فى عشرين غزوة وسرية فى تسع سنوات! . . وبعد أن حمل هموم السياسة الخارجية. . فضلاً عن هموم إقامة الدين. . وتغيير الثقافة والحضارة ومجرى التاريخ. . ففى هذه السنوات العشر السابقة على

وفاته، وفي ظل هذه المهام الجسام التي استغرقت كل أوقاته وملكاته وطاقاته، كان تعدد زوجاته -عليه السلام- .

ثم . . إنه ﷺ منذ بعثه وحتى وفاته- كان يقوم الليل إلا قليلا . . حتى تسورم قدماءه من القيام بين يدي مولاه، وكان يتغلب على آلام تورم أقدامه بحلاوة الإيمان! . . ومن كان في هذه النوعية من الحياة الربانية، التي حملّه ربه فيها عبء تغيير الدنيا والدين ﴿إِنَّا سُلِّقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، ليس هو ذلك الذي تتحدث الشبهة عن غرامه وهواه بالزواج والزوجات . .

ولقد عرف عنه ﷺ عتقه وتحريره لكل من دخل في ملك يمينه من الأرقاء .

سادسا: أما حكاية المرأة المؤمنة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ والتي أباح القرآن الكريم له أن يتزوجها إذا أراد -جاعلا ذلك خصوصية له: ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، فيجب أن ينظر إليها في إطار حالات كثير من زوجات الرسول ﷺ اللواتي كن يتطلعن إلى شرف العيش في بيت النبوة، دون تطلع إلى شهوات الحياة الجنسية . . واللواتي ضمنهن الرسول ﷺ إلى بيت النبوة تكريما لتضحياتهن أو تضحيات أزواجهن السابقين الذين ضحوا بتضحيات متميزة واستشهدوا في سبيل الله .

فهذه المرأة المؤمنة، التي تطلعت إلى حيازة شرف العيش فى بيت النبوة ورئاسة الدولة، ووهبت نفسها للنبي -زوجة- آملة أن يقبل هبتها- بعد أن وقف التشريع الإلهى بتعدد زوجات الرسول عند الحد الأقصى- أراد القرآن الكريم. بذكرها أن يشرع جعل هبة هذه المرأة نفسها المقابل لصادقها- ذلك الصداق الذى أخذته كل زوجة من زوجاته- عليه الصلاة والسلام-.

تلك هى قصة هذه المرأة المؤمنة. . وهذا هو المقصد التشريعى الذى من أجله جاء ذكرها فى القرآن الكريم. . ولا علاقة لشيء من ذلك الذى حدث أواخر حياة النبي ﷺ بشيء من ذلك الغمز والافتراء الذى تطلق عليه الشبهة «الهوى بالزواج»!

سابعاً: أما حديث الشبهة عن الحور العين -فى الجنة- ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) مُتَكِنِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ [الرحمن: ٧٢-٧٦]. فهو حديث عن لون من ألوان النعيم الذى أعدّه الله سبحانه وتعالى للمصالحين والصالحات من عباده فى جنات النعيم. . وهو -ككل مفردات عالم الغيب- يجب أن يفوض علم الجوهر والكُنْه والحقيقة فيه إلى الله- سبحانه وتعالى- إذ أن حقائق هذا العالم الغيبى الأخرى هى مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. . ومن ضيق الأفق قياس الغائب على الشاهد

فى مثل هذه الأمور التى ضرب الله لنا فيها الأمثال، تقريباً لصورتها، مع استثناؤه سبحانه - بعلم كُنْهها وحقيقتها وجوهرها، الذى لا قبل للعقل - نسبى الإدراك - بمعرفة المآلات فيها . . بل ولا قبل للغة - التى هى مواضع بشرية - بالتعبير عن حقائقها وكُنْهها : ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف : ٧٦] ، ﴿وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء : ٨٥] ، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة : ١٧] .

وأخيراً . . أليس من الغريب والعجيب - بل والمريب - أن يأتى غمز الحياة الزوجية لمن كان يقوم الليل إلا قليلاً، من الذين غرق أحبارهم وكرادلتهم وأساقفتهم فى الشذوذ الجنسى مع الأطفال؟! . .

أم أن فقدان الحياء يرفع سقف الافتراء على هذا النحو الغريب والعجيب؟! .

